إضاءة

مقارباتٌ جديدة تستند إلى المقارنة بالحُكم السابق

في مئوية إلغاء الخلافة العثمانية

في البانيا، وعلى غرار اليونان، أثمرت المقاربة التي تعتمد على مقارنة الفترة العثمانية مع الحُكم السابق صورة مختلفة عن السردية التي فُرضت خلال الحقبة الشيوعية، صورةٌ جديدةٌ مفادُها انّ الحُكم الامبراطوري أتاح للسكّان المشاركة في الإدارة

محمد م. الأرناؤوط

حفلت السنوات الثلاث الأخيرة بعدّة مئويات متداخلة (مئوية إلغاء السلطنة العثمانية في 2022، ومئوية معاهدة لوزان في 2023، ومئوية إلغاء الخلافة العثمانية في 2024) عُقدت حولها ندوات وصدرت كتبٌ حفلت بجديد سواء فيما يتعلّق بالمعلومات الجديدة المستمدّة من الأرشيفات والأوراق الشخصية لشخصيات كان لها دورها في الأحداث (ومن ذلك يوميات أحمد عزّت باشا العابد التي صدرت في 2019 بعنوان «صندوق عبد الحميد الأسود») أو المقاربات الجديدة لمسائل خلافية في صلب النظام العثماني.

ويختلف الأمر من لغة إلى لغة أو من منطقة إلى منطقة، حيث إنّ السردية الشائعة في بعض البلدان راسخة ولا تحتمل المراجعة لاعتبارات عديدة، تتعلّق بالأنظمة التي خلفت الحكم العثماني، وكذلك العلاقات السياسية بين الدول التي انبثقت عن الدولة العثمانية، سواء فيما سُمّي الشرق الأدنى (البلقان) أو الشرق الأوسط وشمال أفريقيا (العالم العربي)، ومن ذلك تعبير «الاستعمار العثماني» الذي شاع في مصر وسورية في خمسينات وستينات القرن الماضي مع توتّر العلاقات مع تركيا، ولكنّه كان مستهجناً في ليبيا وتونس والجزائر التي تعتبر أنّ الحكم العثماني خلّصها من المصير الذي لاقته إمارة غرناطة عام 1492. في ما يتعلق بالبلقان، كان للأيديولوجيات والأنظمة التي حكمت باسمها (القومية والشيوعية) دورها في ترسيخ سرديات رسمية عبر الكتب المدرسية عن الحكم العثماني؛ فقد كانت الفكرة القومية تتمحور حول تضخيم بطل محلّي مقابل عدوّ ظالم لتحرير البلاد واستقلالها وفق خريطة لا تنطبق على الواقع (وتضمّ عادة قومية أو قوميات أخرى غير مرغوبة)، وبقيت هذه الفكرة حيّة حتى انبثاق «العثمانية الجديدة» التي أجّجتها أكثر. ومع وصول الأحزاب الشيوعية إلى الحكم في دول البلقان جرى تطبيقُ تعسّفي للمفاهيم الماركسية على العهد العثماني بوصفه نموذجاً للنظام الإقطاعي والاستبداد الشرقي. ومع أن «ربيع أوربا الشرقية» شمل دول البلقان ببركات الديمقراطية، إلّا أنّ صورة الحكم العثماني في الكتب المدرسية بقيت متفاوتة، سواء في مضمونها أو في طريقة اعتمادها.

ويلاحَظ في صربيا واليونان أنّ الصورة النمطية تتغيّر أحياناً حسب العلاقات مع تركيا، بينما نجد الصورة مختلفة في البوسنة (المؤلّفة من كيانَين مختلفَين) بين الصرب والبُشناق، حيث نجدها سلبية في «جمهورية الصرب» وإيجابية أو أكثر موضوعية في «فدرالية البُشناق والكروات»، ومثل ذلك نجده بين الألبان في الجمهوريات المجاورة التي يعيشون فيها (ألبانيا وكوسوفو ومقدونيا الشمالية). وبالمقارنة مع البلاد العربية، يختلف الأمر في البلقان

من البلقان إلى المتوسّط

في كتابه «من البلقان إلى المتوسّط: الألبان من القرون الوسطى إلى فجر العصر الحديث» (2019/ الغلاف)، يبيّن أرديان موهاي أنّ الألبان تمكّنوا من الصعود في الهرمية العثمانية حتى كانت لهم أكبر حصّة من الصدور العظام، كما خرجوا من المقوّمة التي كانوا فيها في البلقان، ليَنتشروا في عالم المتوسّط خلال القرن السادس عشر ولاةً وقياطنة وقادةً عسكريين، وقد استمرّ هذا الحضور إلى اليوم

«متحف التاريخ الوطني» في تيرانا (Getty)

كثيراً ما ارتبطت صورة الحُكم العثماني بالعلاقات مع تركيا

صعد الألبان في الهرمية العثمانية بواسطة الدفشرمة

لأنّه كان الخزّان الذي جاءت منه النخبة العسكرية والإدارية التي حكمت الدولة العثمانية خلال القرون الأولى (حوالي 1450 - 1700) بواسطة نظام الدفشرمة (جمع أو اختيار الشبّان للخدمة العسكرية/ الإدارية في الدولة) الذي كان العرب واليهود والأكراد والأتراك معفيّين منه.

ففي سنوات التوتّر مع تركيا، بقيت صورة الدفشرمة سلبية للغاية باعتبارها «ضريبة الدم» التي تماثل الاسترقاق. ولكن التغيّر الذي حصل في تركيا عام 2001 وانتهاج سياسة «تصفير المشاكل» مع الدول المجاورة أدّى إلى اختراق في اليونان بعد تبادل الزيارات الرسمية والاتفاق على مراجعة كتب التاريخ؛ فقد أثمر هذا، مع وجود وزيرة التعليم المنفتحة ماريتا ياناكو (2004 - 2007)، إصدار كتاب مدرسي جديد للتاريخ للصفّ السادس الابتدائي في 2006 يغطّي تاريخ اليونان من 1453 إلى نهاية القرن العشرين، ولكنّ هذا الكتاب جوبه بحملة كبيرة شاركت فيها الكنيسة والأوساط القومية اليمينية حتى تعرّض للحرق في «ساحة سينتاغما» المعروفة في أثينا.

وقد انصبّت الاعتراضات عليه من كونه يقلّل من دور الكنيسة في حركة الاستقلال عن الدولة العثمانية، ولا يصف الحكم العثماني بكونه «عبودية»، ويقدّم الدفشرمة بشكل مختلف عما زُرع في أذهان أجيال من اليونانيّين. وقد دافعت الوزيرة عن الكتاب بقولها: «أنا أومن بالحقيقة في ما حدث في التاريخ، ويجب ألّا نروي للأطفال قصصاً سحرية»، لكنّها دفعت الثمن في انتخابات 2007 التي خسرت فيها مقعدها البرلماني ومنصبها الوزاري، بينما عمد خلفها في الوزارة إلى سحب الكتاب فوراً من التداول.

وقد تعرّض لهذا المؤرّخ البريطاني ديفيد بـروور D. Brewer في كتابه «اليونان القرون المخفية: الحكم التركي من سقوط القسطنطينية إلى الاستقلال اليوناني»، الذي صدر في لندن عام 2010. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذا الكتاب يُقدّم صورة أكثر موضوعية عن الحُكم العثماني بالمقارنة مع ما هو موجود في اللغة اليونانية، حيث يعتمد المؤلّف على مقاربة جديدة للحكم العثماني تتمثّل بمقارنته مع ما كان قبله (حُكم البندقية لليونان الذي هَمّش الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية)، كما يميّز بوضوح خلال الحكم الشيوعي (1945 - 1991). وليس من المستغرب أن يكون صاحب هذه المبادرة من الجيل الجديد من المؤرّخين الذين درسوا في الخارج (البرتغال) وعادوا بمقاربة أكثر شمولية لتاريخ بلادهم ضمن السياق الأوروبي.

صحيح أن أردِيان موهاي Adrian Muhaj درس التاريخ في «جامعة تيرانا»، ولكنّه درس المذهب والدكتوراة في «جامعة لشبونة» وعاد إلى بلاده بمقاربة جديدة عن الحكم العثماني تبدّت في عدّة دراسات في المجلّات العلمية الألبانية والأوروبية، قبل أن ينشر «معهدُ التاريخ» في تيرانا عام 2019 كتابه «من البلقان إلى المتوسّط: الألبان من القرون الوسطى إلى فجر العصر الحديث». وعلى نمط المؤرّخ البريطاني ديفيد بروور في كتابه عن اليونان، كان يكفي المؤرّخ أردِيان موهاي أن يقارن الحكم العثماني في ألبانيا بالحكم الذي سبقه (حكم البندقية) ليصل إلى مفارقة كبيرة بين الحكمين: الحكم الكولونيالي الذي يستبعد تماماً مشاركة السكّان في الإدارة، والحكم الإمبراطوري الاحتوائي الذي يقوم على مشاركة السكّان في الإدارة.

وبواسطة الدفشرمة تمكّن الألبان من الصعود في الهرمية العثمانية حتى كانت لهم أكبر حصّة من الصدور العظام (أكثر من ثلاثين) كما خرجوا من القوقعة التي كانوا فيها في البلقان لينتشروا في عالم المتوسّط خلال القرن السادس عشر ولاةً وقياطنة وقادةً عسكريين. وقد استمرّ هذا الحضور الألباني في تزايد، خصوصاً مع بروز محمد علي باشا والياً على مصر في 1805 وتأسيس الأسرة العلوية الحاكمة التي اجتذبت الكثير من الألبان للعمل، إلى حدّ أنّ الألبان في مصر قبل 1952 كانوا الجالية الخامسة من حيث العدد بعد الإيطاليّين واليونانيّين والفرنسيّين والإنكليز، كما زاد في تركيا بحدودها الحالية، حتى أنّ عدد الألبان في تركيا الآن يكاد يتجاوز عدد الألبان في ألبانيا ذاتها.

(كاتب وأكاديمي كوسوفي سوري)

إطلالة

عبارا تنا كعَبَر تنا مباشرة ودون مجاز

بين الشرّ الذي نعرفه والذي يتخيّله الآخرون

هل عليّ أن أفكّر طويلاً قبل أن أصرخ في مسيرة: «إسرائيل قاتلة أطفال»؟ هل عليّ أن أُجري بحثاً تاريخياً لما قد تحمله من دلالات وإسقاطات؟ أيّ دلالة أفدح من التي أعرف؟ أيّ إسقاط أفظع من الواقع؟ لست خبيراً في معاداة السامية، لست خبيراً لا في العداء ولا في السامية، لست خبيراً في شيء، لكنّي أعيش مع ملايين الفلسطينيّين واقعاً مرّاً وقاهراً، أعيشه حقيقةً وأعرفه واقعاً، وليس عندي ترف التفكير المليّ، ولا البحث والاستسقاء في خيالات غيري

يزن التميمي

زعم صديقٌ ألماني أنّ نداء «إسرائيل قاتلة الأطفال نداءٌ معادٍ للسامية»، فقد ربطها بالإشاعة التي أطلقها مسيحيو أوروبا ابتداءً من عصورهم الوسطى بأنّ اليهود يخطفون أطفال المسيحيّين ويقتلونهم سرّاً، ولامني كيف لا أعترض على ترديد مثل هذه العبارات في المسيرات المتضامنة مع الفلسطينيّين.

أجبتُه: «أنا لست خبيراً إلى هذه الدرجة في معاداة السامية». وفعلاً، حين كنتُ أسير في التظاهرات المندّدة بحرب الإبادة على غزّة، لم أكُن أفكّر سوى في مئات الآلاف من الضحايا الذين سقطوا ويسقطون، بوتيرة مرعبة وقاهرة ومخيفة، ولا أرى في «إسرائيل» سوى مستعمِرة مجرمة، تُبيد الشعب الأصلاني، ولا يوجد من يتجرّأ فيعترض على هذه الإبادة.

في تلك اللحظات لا أفكّر في دينانة ولا أكترث لأيديولوجيا، ولا أردّد سوى ما أراه على أرض الواقع. «إسرائيل» كيانٌ استعماري قتل، خلال ستّة أشهر، ما يزيد عن عشرين ألف طفل. إذن: «إسرائيل» قاتلة أطفال.

لا يوجد في ثقافتي وتصوُّري عن العالم وميولي السياسية أكثر من هذه الحقيقة الملعونة التي تطاردني في منامي وتوقظني على كوابيس مُرّة. أراني مدفوعاً بها إلى الشوارع، أصيح مع من يصيح، وأصرخ مع من يصرخ، لعلّ شيئاً في هذا العالم الملعون يتحرّك فيُوقف قتل هذا العدد المهول من الأطفال، وقتل أيّ طفل وأيّ امرأة وأيّ رجُل بلا ذنوب ولا خطايا.

من يقتل ويُبيد ملعونٌ أيّاً كان دينه ومنشأه وفكره، ومن يُباد حُقَّ نصره وإسناده، أيّاً كان ومهما كان. فكيف إذا كان الضحايا هم أهلي؟ كيف إن كنتُ أعرف كثيرين ممّن استُشهدوا في هذه الحرب الملعونة؟

أنزل إلى التظاهرة بعد أيام من زيارتي، في وفد أصحاب، إلى شابّ نعرفه من غزّة، لنعزّيه في فقدان اثنين وخمسين فرداً من عائلته. اثنان وخمسون فرداً! لم أتصوّر، في حياتي، أن أذهب للعزاء في اثنين وخمسين فرداً دفعةً واحدة، احتموا جميعاً في بيت واحد، في مخيّم جباليا الضيّق والمتراصّ. كان معظمهم من الأطفال، هكذا حدّثنا الشاب. أرانا صورهم، وحكى لنا حكاياتهم، منهم إخوته الصغار ووالدته ووالده.

هل بعد هذا أفكّر طويلاً قبل أن أصرخ في مسيرة: «إسرائيل قاتلة أطفال»؟ هل عليّ أن أطيل التأمّل في هذه العبارة، ثم أُجري بحثاً تاريخياً لما قد تحمله من دلالات وإسقاطات؟ أيّ دلالة أفدح من التي أعرف؟ أيّ إسقاط أفظع من الواقع؟ لست خبيراً في معاداة السامية، لست خبيراً لا في العداء ولا في السامية، لست خبيراً في شيء، لكنّي أعيش مع ملايين الفلسطينيّين واقعاً مرّاً وقاهراً، أعيشه حقيقةً وأعرفه واقعاً، وليس عندي ترف التفكير المليّ، ولا البحث والاستسقاء في خيالات غيري واشتراطاتهم. لستُ من أطلق على اليهود (وغيرهم من الأقلّيات في أوروبا) هذه الإشاعة الفظيعة، ولست من اقترح حلّ مشكلتهم باصطناع كيان لهم، وحملهم على ترك البلاد التي انتموا إليها، ولست من يصرّ على أن يُسمّي هذا الكيان الدولة اليهودية الوحيدة في العالم. ولست من يخترع تعريفات لمعاداة السامية ثم يُلصقها

تصوّري للشرّ مرتبط بالفعل والنتيجة لا بالتخاريف

هذا الكيان بكلّ بند منها. ليست عندي قائمة طويلة من التصوّرات الخرافية التي أسقطها على أيّ شعب، ولا تصنيفات اتخيّلها عن «عناصرهم وأنواعهم».

كنت مشغولاً بالساعات الطويلة على «الماسنجر» (الحواجز) ونقاط التفتيش في طريقي إلى المدرسة، ومشغولاً بتفادي قنابل الصوت والغاز والأعيرة النارية. كان ذهني ممتلئاً بصور الأطفال والنساء والرجال القتلى، ومخيّلتي مشغولة بتصوُّر كيف يكون الأمن والاستقرار. لذا بقيت عباراتي مباشرة ودون مجاز، وأحلامي واقعية ومملّة، وتصوّري للشرّ مرتبطاً بالفعل والنتيجة لا بالتخاريف والأوهام.

(كاتب فلسطيني مُقيم في ألمانيا)

شرائط تحمل أسماء شهداء من غزّة في اعتصام أمام البرلمان الألماني ببرلين (العربي الجديد)

قراءة

في انتظار ما لا يعرفونه

الحياة الروسيَّة في «الطابور»

الطابور في رواية الكاتب الروسي الصادرة ترجمتها حديثاً، هو الحياة العادية، لا الحب ولا الكراهية، بل أناس يقفون من دون الحصول على شيء

سومر شحادة

رواية لا تخفي موضوعها، لا تُواربه، وإنّما بدءاً من العنوان إلى الأسلوب إلى التفاصيل كلّها، لا تتوقّف رواية «الطابور» للروائي الروسي فلاديمير سوروكين (1955)، الصادرة عن «دار الرافدين» وبترجمة أنجزها عن الروسية تحسين رزاق عزيز؛ عن القول بأنّ الحياة هنا، في سنوات الركود السوفييتيّة المتأخرة، ليست سوى طوابير انتظار. حيثُ الناس ينتظرون كلّ شيء، مع الإشارة إلى أنّهم في الطوابير لا يعرفون ماذا ينتظرون، لا يعرفون المواد التي يقفون لشرائها، بانتظار أن يبدأ البيع، وهُم يتساءلون عن بلد المنشأ وعن الكمّية وعن الألوان، وغير ذلك ممّا يجهلون. باختصار، إنّهم حبيسو نظامهم.

وحين يكون المرء حبيس نظامه، وبلده، ليس بوسعه أن يفعل سوى أن يقتل وقته بشكل طوعي؛ الناس هنا، في الطابور، لا يحتاجون إلى ما يبرّر استلابهم، لا يحتاجون إلى ما يفسّر تلك الرتابة الباردة الاعتيادية في أحاديثهم، لا سيّما أنّ الرواية مقتصرة على الحوار، مقتصرة على أناس يمضون أيامهم في الشارع، ينتظرون، يتعارفون، يكذبون حيال شؤون حياتهم، ويتأفّفون لأسباب أحدثها الطابور. وكأنّما الطابور امتصّ حتّى التفاصيل التي قد تحدث في الحياة العادية. الطابور هو الحياة العادية هنا؛ لا الحب، لا الأبناء، لا الغيرة، لا الكراهية، فقط، نرى أناساً مشدودة إراداتهم إلى فكرة عبثية هي وقوفهم في طوابير من غير أن يحصلوا على شيء، حتّى بات الانتظار نفسه، ما يشغلهم، ما يسعون إليه، وهو ما يحرّك وعيهم حتّى في لحظات النشوة التي تعقب الحبّ، أو يأتي بها الحبّ، أو يصنعها الحبّ. وهو هنا، في الطابور، حبٌّ مُصنّع بالمصادفة والسُّرعة ذاتها التي قد يصنعها وقوفُ أحد وراء آخر في طابور الانتظار.

النصّ عبثي، بلا شكّ، خاصة عندما نعرف القوانين التي يُولّدها الطابور. إذ يرغب الناس بالوقوف في الطابور الأكثر طولاً، لأنّ طول الطابور، وعدد الناس الواقفين بانتظار ما لا يعرفونه، هو مقياس جودة ما ينتظرون. الجهل والغموض هما عماد هذا الاستعباد الأقصى للناس هنا، في الطابور الروسي.

الطابور يُولّد قوانينه، ويصبح بذاته هو الموضوع الذي يُطبّق على العيش، وينسرق العيش، ويرسم صورة الحياة برمّتها، حيثُ يتوزّع الواقفون في الطابور إمّا على الأرصفة، يتكدّون على الجدران، أو في خلاء الساحات والشوارع، أو في أفنية المنازل.

وهكذا تمضي الحياة، حتّى الحب يولد حبيساً لهذا النظام، حتّى إنّ بطل الرواية الذي نعرف اسمه، وهو «فاديم»، يجد نفسه في النهاية، واقعاً في غرام رئيسة قسم البيع في أحد المتاجر، وتخبره، أنّ البضاعة تُجزر، وسوف يبدؤون التوزيع ما إن ينتهي الجزر. لكن هذا لا يحدث، يمكن للقارئ أن يتوقّع هذا، لأنّ النصّ مكتوب كي يقول لنا؛ كيف يركض الناس للوقوف في الطابور، من أجل أن يقتلوا ساعات حياتهم. وما سوف يشترونه ليس مهمّاً، المهمّ هو أن يهدروا وقتهم في فعل شيء، ولو كان الانتظار.

في الرواية سخرية مريرة من الأسلوب الذي يهدر البشر، حتّى إن الطابور، يهدرُ إنسانيتهم كبشر، يفقدهم معناهم. حتّى إنّهم ينتهون أرقاماً، كما لو أنّهم جثثٌ طافية، تسبح في وقتٍ يسطر عليه النظام.

بالطبع، الطابور لا يعيق الحياة؛ إلا أنّه يصيرُ جوهرها؛ هكذا نجد الناس يذهبون إلى السينما، ويعودون إلى الطابور، يذهبون ليأكلوا - في طوابير أيضاً - ثم يعودوا إلى الطابور الذي هو جوهر عيشهم، وقد سطا على حياتهم، وقيّدهم إليه. مع رتابة فكرة الطابور، إلا أنّ إحدى الشخصيات التي نقرأ سخطها، نصف الطابور بـ«الملحمة». فهو سخطٌ ينطوي على إعجاب وإشادة، إذ بعد وقتٍ من الاستلاب، يُفتَن المُستَلبون بما ومَن يعطب عيشهم.

يُفتَن المُستَلبون بما ومَن يعطب عيشهم

(روائي من سورية)

فلاديمير سوروكين، برلين، 2015 (Getty)

فعاليات

حتى 17 حزيران/ يونيو المُقبل، يتواصل في «خالِيري تانيت» ببيروت معرضٌ بعنوان **Mare Nostrum «بحرنا»** للتشكيلي اللبناني **إيلي ـ فيليب شحادة**. تنقل لوحات المعرض أجواء الصيف؛ الوانٌ تغلب عليها الزرقة بتدرّجاتها، وطبيعة تندمج شخوصها بحيوية المحيط، صخور وشِباك وشطآن يتوزّعها الصيّادون والقوارب.

ينتظم، عند الثامنة من مساء اليوم الجمعة في «أوفسينا سان دومينغو» بمدينة أندريا جنوبي إيطاليا، حفل إطلاق العدد السادس من مجلّة **آراب بوب** المتخصّصة بالفنون والآداب العربية. يُخصَّص العدد، الذي حرّرته المستعرية **سيليفا موريسي**، لأصوات من الأدب الفلسطيني من بينهم: يسري الغول، ونورا طافش، وشيرين عودة، ومجد كيّال، وأنيس غنيمة، وفاتنة الغُرّة، وكريم قطّان.

يلتئم «نادي تكوين للكتاب» في الكويت العاصمة (فرع الشويخ) عند السابعة والنصف من مساء الأربعاء المُقبل لمناقشة رواية **ناقة صالحة** للروائي الكويتي **سعود السنعوسي**، حيث تدير النقاش **زينة علي**. تستعيد الرواية حال بادية الكويت مطلع القرن العشرين، وتعكس تناقضات مجتمعها التي كانت قائمة في ذلك الحين.

عند الثالثة من مساء اليوم الجمعة، يعقد فرع «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» في تونس العاصمة ندوة حول كتاب الباحثة **اسمهان يوسفي الطبّ والسياسة: محمود الماطري 1897 - 1972**. يناقش الكتابَ، إلى جانب المؤلّفة، الباحثان محمد ضيف الله وعبد الرحمن الهذلي، ويتطرّقان إلى سيرة الطبيب والسياسي التونسي.